إتجاهات الشعر في القرن السابع الهجرى

دكتـــور
محمود جمعـــة أمين
أستاذ الأدب والنقـــد المســـاعد

الحمد لله رب العالمين والصـــلاة والســـلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد النبى المصطفى الكريم وعلى آله وأصحابه أجمعين •

وبعـــد •••

فهذا بحث أدبى عن أهم الاتجاهات التى اتجه اليها الشـــعر فى القرن السابع الهجرى وقد كان هـــذا القرن من أهم الفترات الحاسمة فى تاريخ الاسلام والمسلمين حيث وقعت فيـــه أهم المعـــارك التى دارت بين الصليبية والاســـلام مثل معركة عكا وحطين وعين جالوت وغيرها • كما أنه شهد أهم حـــدث تاريخى وهو الغزو التترى لبلاد الاسلام ، وكان لكل هـــذه الأحداث أثرها فى توجيه الشعر آنذاك اذ اتجه الشعراء الى هـــذه المعـــارك يسجلون أحـــداثها باكين تارة وفرحين تارة أخرى •

ولمـــا كانت هـــذه الحروب قـــد شنت على الاسلام تريد هدمه فقد اتجه الشعراء الى الناحية الدينيـــة يشحذون الهمم مثيرين فى المسلمين العواطف الدينية يمجدون الاسلام ورسوله •

كذلك حظى هـذا القـرن باهتمام حـكام المسلمين بالعـلوم الاسلامية والعربية وغيرها من أنواع الثقافة لهـذا اتجه العـلماء خاصة الشعراء منهم الى نظم العلوم وذكر مصطلحاتها عونا للطلاب على حفظ قواعدها •

ولمـا كان العصر عصر زينـة وزخرفة فى كلّ مناحى الحياة فقد اتجه الشعراء الى المحسنات البديعية والزخارف اللفظية لذا فقـد حصرت بحثى على الاتجاهات الآتية :

١ ــ الحروب والغارات •　　٢ ــ الاتجـاه الدينى •
٣ ــ نظـم العـلوم •　　٤ ــ المحسنات البديعية •

والله أسأل التوفيق ؛ وما توفيقى الا بالله عليـه توكلت واليـه أنيب •

الشـعر فى القـرن السـابع

شهد القرن السابع الهجرى أعنف الحروب الصليبية(١) وأشدها

---

(١) وكانت هذه الحروب قد بدأت يوم وضع الصليبيون أرجلهم بأرض الشام يريدون الاستيلاء عليها وأن يفتحوا بيت المقدس • وكان ذلك عام ٤٩٢هـ وانتهت هذه الحروب حين استولى الأشرف خليل بن قلاوون سلطان مصر على مدينة عكا وهزم الصليبيين وكان ذلك فى يوم الجمعة ١٧ من جمادى الآخرة سنة ٦٩٢هـ بعد حصار دام أربعين يوما واستردها المسلمون بعد أن ظلت فى يدى الصليبين مائة وثلاث سنوات وقتل كثير من الصليبيين وأسر الكثير منهم وغنم المسلمون من الغنائم ما يفوق الحصر من كثرته ثم استنزل السلطان من تحصن بالأبراج من الصليبيين وقتلهم والقى ببعضهم فى البحر ، انظر العالم الاسلامى والحروب الصليبية ص ١٨٧ ، د• زكى محمد غيث مطبعة عطايا باب الخلق القاهرة سنة ١٩٦٤ •

ضراوة وكان لهـذه الحروب أثرها البالغ فى توجيه الأدب بصـفة عامة والشعر منه بصفة خاصة اذ أمدته بألوان من التغذية جعلته ذا مظهر خاص به وسمة تميزه عما سواه كما كان لها الأثر البالغ فى غزارة النتاج الشعرى لهـذا القرن وذلك لأن الأحداث العنيفة التى وقعت بسبب هـذه الحروب آثارت العواطف وحركت كوامن الوجدان ودفعت الى القول بل واجادته « ففى قلب بلاد الاسلام سكن عدو لا يفتـأ يغير على أطراف البلاد العربية وثغورها ناشرا الفزع والاضطراب فى نفوس الآمنين ومستخدما أشد ألوان القسوة فيما تملكه يده من بلاد الاسلام ، ووقف قوم يدفعون هـذا العدو حينا ويغيرون عليه حينا آخـر ويتحرقون غيظا على وطن اغتصب ودماء أريقت على أرض هذا الوطن ثم يجمعون قواهم ويوحدون جهودهم لمقـاومة العدو وطرده وتطهير الأرض من آثامه ورجسه(٢) .

كل ذلك كان له أثره فى اثارة النفوس ودفع الشعراء الى القول فرحين تارة وباكين تارة أخرى .

كذلك كان الاعجاب ببطولة بعض السلاطين دافعا للشـعراء الى الالتفات حولهم التفافا يذكرنا بالعهود الزاهرة للشعر العربى .

أضف الى هـذا أن سلاطين المماليك كانوا يحبون الأدب ويجيزون عليـه ويجلسون للشعراء مجالس ينصتون فيها الى أشعارهم وينقدون نتـاجهم ويكافئونهم على مقـدار جودتهم وكانوا يتأثرون بالشـعر ويتراسلون به ويدخل ضمن ثقافتهم التى لا غنى عنها لهم ويتمثلون به

---

(٢) الحياة الأدبية فى عصر الحروب الصليبية ص ٢٣ د/ أحمد أحمد بدوى مطبعة نهضة مصر الطبعة الثانية ص ١٩٧٩ .

كلما عن لهم ما يدعو الى القول العاطفى المثير بك مضى كثير منهم يقرض الشعر حتى صار له دواوين أبقى على بعضها الزمن أو يؤلف فى فنون الأدب أو يشجع على التأليف(٣) فى هذه الفنون فللناصر دواوين المعظم عيسى ديوان شعر(٤) وصل فى بعضه الى مرتبة الاجادة كقوله :

عيون عن السحر المبين تبين لها عند تحريك القلوب سكون
اذا ما رأت قلبا خليا من الهوى
تقول له : كن مغرما فيكون(٥)

وذكر المقريزى فى خططه أن الملك الكامل المتوفى سنة ٦٣٥هـ كان شاعرا ويذكر أنه كتب الى أخيه الأشرف موسى رسالة ليستحثه فيها على الحضور حين كان الفرنجة على دمياط صدرها بأبيات منها :

يا مسعدى ، ان كنت حقا مسعفى
فانهض بغير تلبث وتوقف
واحث قلوصك موقلا أو موجفا
يتجشم فى سيرها وتعسف
واطو المنازل ما استطعت ، ولا تنخ
الا على باب المليك الأشرف
واقر السلام عليه من عبد له
متوقع لقدومه متشوف

---

(٣) المرجع السابق ص ٢٣ .

(٤) واسم هذا الديوان « الفوائد الجلية فى الفرائد الناصرية » مخطوط بدار الكتب رقم ٢٢٩٣ أدب .

(٥) المصدر نفسه .

واذا وصلت الى حماه فقل له
عنى بحسن توصل وتلطف
ان تأت عبدك عن قليل تلقه
ما بين كل مهتد ومثقف
أو تبط عن انجاده فلقاؤه
بك فى القيامة فى عراض الموقف

وقد كان لهذه الرسالة أثرها فقد أقبل « الأشرف موسى » على عجل وقوى بقدومه أمر الملك الكامل(٦) .

كما يذكر صاحب النجوم الزاهرة أن « يوسف بن محمد بن غازى ابن صلاح الدين الأيوبى » كان يقرض الشعر . من ذلك قوله — وقد أشعل التتار النيران فى حلب فهدمت وحرقت وخربت فقال مخاطبا أهلها الذين شردوا :

يعز علينا أن نرى ربعكم بلى
وكانت به آيات حسنكم تتلى(٧)

وكان الملك الأشرف « خليل بن قلاوون » ذا بصر بالشعر يتذوقه وينقده . روى أنه لما فتح عكا عام ٦٩٠هـ وعاد الى مصر فزينت له القاهرة واحتفى به الناس واجتمعوا له بالقبة المنصورية قام « نجم الدين العنبرى » الواعظ وكان شاعرا فصعد المنبر لينشد قصيدة فى مدح الملك وذكر جهاده .

---

(٦) خطط المقريزى جـ ٤ ص ٢١٢ طبع القاهرة سنة ١٩١١م .

(٧) النجوم الزاهرة ليوسف بن تغرى بردى الأتابكى طبع القاهرة سنة ١٩٣٥م .

فكان فى مطلعها قوله :

زر والديك وقف على قبريهما
فكأننى بـــك قـــد نقلت اليهما

فتطير الأشرف من هـــذا البيت ونهض واقفا وانصرف(٨) .

ويذكر التاريخ أن كثيرا من وزراء ذلك القرن قرضـــوا الشـــعر وتغنوا به وعنوا بنظمه يحدثنا صاحب بدائع البدائة أن المـــلك العزيز أرسل الى وزيره طالبا اليه أن يضع غزلا فى جارية وضعت على خدها صورة حيـــة وعقرب بالمسك فارتجل الوزير على البديهة الأبيـــات التـــالية :

فديتهـــا من غـــادة مخلـــوقة من طـــرب
سألتها فى قبـــلة فى خـــدها المذهـــب
فجـــاوبت معجبـــة بكفهـــا المخضـــب
وبـــأبى وأيـــابى من عظم هذا المطلب
وليس هنـــا ممكنا على ممـــر الحـــقب
روضة خدى حرمت بحيـــة وعقـــرب
من رام أن يلثمها قلـــيرقها بالذهـــب
وليشرب الدرياق من رضاب ثغـــرى الشنب(٩)

وكان لبعض السلاطين ووزرائهم مجالس أدبيـــة متنوعة يصغون فيها الى قصائد الشـــعراء ويستجيزون من حضر منهم ويطلبون اليهم القول فى معان معينة(١٠) .

---

(٨) الأدب العربى وتاريخه فى عصر المماليك والعثمانيين والعصر الحديث د/ محمود رزق سليم طبع دار الكتاب العربى مصر سنة ١٩٥٧م.

(٩) بدائع البدائة ص ١٥١ وما بعدها لعلى بن ظافر الأسدى مطبعة بولاق ١٢٧٨هـ .

(١٠) المرجع السابق ص ٨٦ .

من هـذه المجالس ما كان يعقده الأشرف بن قلاوون وكان فيهـا يطارح الأدباء بذهن رائق وذكاء مفرط(١١) .

كما لا يغيب عن البال أن حـكام ذلك القرن اتخـذوا الشـعر وسيلة لنشر مبادئهم والترويج لعقائدهم ودعاية يثبتون بهـا قواعـد عروشهم وهم قوم لم يرثوا الملك عن أجدادهم ولكنهم بنوه بأيديهم فالشعر يغرس فى نفوس رعيتهم حبهم والولاء لهم كما كان الشـعر يؤدى الرسالة التى يريدها هؤلاء الحـكام من شعوبهم فهم — أى السلاطين — قد نصبوا أنفسهم لجهاد الفرنجـة فوجدوا هـذا الشعر الذى يتحدث عن الجهاد موقدا للحمية فى نفوس المسلمين باعثا لهم على الاستماتة فى استرداد بلادهم المغصوبة . فضلا عن ذلك فان حب الأيوبيين للشعر يعود جزء منـه الى حذرهم من أن ينظر اليهم أنهـم أقلّ تذوقا لهـذا الفن الجميل من العرب الذى يقومونه ويعرفون قدره وهم لا يريدون أن يكونوا فى هذا الشأن أقلّ من العرب قدرا(١٢) .

ولعلّ الأسباب التى دعت سلاطين المماليك الى تشجيع الأدب هى الأسباب نفسها التى دفعت الأيوبيين الى هـذا التشجيع وربمـا كان لنشأتهم فى الرق أثرها فى الاقبـال على الشـعراء وتشجيعهم ليشيدوا بمآثرهم كى ينسى الناس ماضيهم ولا يذكروا غير حاضرهم المجيـد ولهـذا شجع بيبرس الشعراء فالتفوا حوله وتغنوا باصلاحاته وجهاده واقتدى به فى ذلك قلاوون وابنه الأشرف خليل(١٣) .

---

(١١) انظر السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزى جـ ١ ص ٢٩١ نشر د/ محمد مصطفى زيادة طبع القاهرة سنة ١٩٣٧م .

(١٢) انظر الحياة الأدبية فى عصر الحروب الصليبية د/أحمد أحمد بدوى ص ٣٦ .

(١٣) المرجع نفسه ص ٣٧ .

واذا كان هـذا القرن قـد شهد طائفة من المـلوك والحـكام قـد قرضوا الشعر وأحاطوا أنفسهم أو أحاط بهم جماعة من الشعراء مثل المـلك الكامل والظاهر بيبرس والأشرف ممن أغدقوا على الشعراء وأجزلوا لهم العطـايا فان هـذا القرن قد ضـم طوائف كثـيرة من الشعراء تعددت ألوانهم وتنوعت مذاهبهم الشعرية فمن شعراء فنيين اتخـذوا الشعر حرفة لهم يعيشون على ما يدره عليهم من رزق قل أو كثر كابن النبيه المتوفى ٦١٩هـ وابن عنين المتوفى ٦٣٢هـ والبهـاء زهير المتوفى ٦٥٦هـ وأبى الحسين الجـزار المتوفى ٦٧٩هـ ؛ ومن علماء رأوا فى التأديب بقول الشعر ما يزيد من أقدارهم ويرفع من مكانتهم فى أنظار معاصريهم ولهـذا رأينا علماء كثيرين قرضوا الشعر وحرصوا على أن يروى لهم كابن دقيق العيد المتوفى سـنة ٧٠٢هـ وتاج الدين الكندى المتوفى سـنة ٦٤٣هـ • ورأينا من الشعراء من ينحدر من أصل عربى خالص مثل البهاء زهير(١٤) ومن ينحدر من أصل تركى أو كردى مثل « علم الدين أيدمر المحيوى » ومن شعراء ذوى حـرف كالخياط والجزار والوراق • وفى هـذا القـرن نمت نزعة التصـوف والحس الدينى بدرجة تفوق غيره من القرون السالفة •

واذا كان التصوف جزءا من نوازع النفس الانسانية على مدى تاريخها فان التصوف فى القرن السابع الهجرى ــ على الرغم من عدم امكانية فصله عن التراث الدينى ــ قـد نما وازدهر لزدهارا عظيما لم يشهده أى قرن مضى يقول الدكتور/على صافى حسين :

---

(١٤) ينتهى نسب البهاء زهير بالمهلب بن أبى صفرة أحد سادة العرب وشجعانهم والقائد الذى حارب الخوارج أيام الدولة الاموية وكان قد ولد فى وادى نخلة بالقرب من مكة (انظر الاعلام للمزركلى جـ ١ ص ٣٣٩ المطبعة العربية ١٩٢٧م) •

« لقـد كان التصوف الاسلامى فى مصر فى أثناء القرن السابع الهجرى أكثر جوانب الحياة الدينية ازدهارا وأعظمها ذيوعا وأوسـعها انتشارا ولا عجب فقد تصوف اهل مصر والوافدون اليها فى هـذا العصر على اختلاف طبقاتهم وأجناسهم ومذاهبهم ونحلهم ومذاهبهم الدينية والدنيوية ، فالفقير والغنى والحاكم والمحكوم كل أولئك قـد تصوفوا اما تصوفا نظريا أو تصوفا عمليا وتلك ظاهرة لم يشهد لهـا التاريخ مثيلا فى أى قطر من الأقطـار أثنـاء أى عصر آخـر من العصور »(١٥) ولهـذا فقد نشط الشعر الصوفى على لسان كثـير من متصوفة هـذا القرن من أمثال ابن الفارض المتـوفى سنة ٦٣٢هـ وابن عربى المتوفى سنة ٦٣٨هـ وأحمد بن على الشهير بالسيد البـدوى المتوفى سنة ٦٧٥هـ وابراهيم الدسوقى المتوفى سنة ٦٧٦هـ والغرناطى المتوفى سنة ٦٦٨هـ وأبى الحسن الشاذلى المتوفى سنة ٦٥٦هـ .

وقد هيأ المناخ لنمو نزعة التصوف فى هـذا القرن بحيث كان أكثر قرون التاريخ المصرى ايغالا فى الاحسـاس الدينى ونزوعا الى التصوف . واذا رحنا نبحث عن سر نمو هـذه الظاهرة فاننا نجدها فى :

١ ــ افتقاد العدل الاجتماعى وانعدام التوافق بين عناصر المجتمع آنذاك حيث كانت البلاد فى ذلك القرن يحكمها الأيوبيون فالمـاليك وقد جعلوا أقـدارها فى أيديهم وممتلكاتها تحـت تصرفهم ولم يكن للشعوب أى تأثير فى نظام الحـكم ولم يكن لأحـد ممن ينحـدرون من أصل عربى أية مكانة فى وطنه ولقـد حاولت تلك الشـعوب

---

(١٥) دراسات فى الاسلام اصدار المجلس الأعلى للشئون الاسلامية العدد ٨٠ فبراير سنة ١٩٦٨ ص ١٣٩ .

استرجاع حقوقهم بالانتفاضات المتتالية ولكنهم أخفقوا أمام جبروت السلطة وبطشـــها •

وبسبب أنهم افتقدوا العدل فى الحياة الدنيا فقـــد دفعهم حلم التعويض فى الحياة الآخرة الى الانغماس فى التصوف خاصة فى مصر اذ أحس المصريون بالغبن الواقع عليهم وبأن حقوقهم لا سبيل اليهـــا فى الدنيا فتركوا الدنيا لطلابها ينالون من مفـــاتنها وأقبل شعراؤها ينظمون فى التعبير عن الحقيقة المحمدية وذكر تنقلها من نبى الى نبى حتى ظهرت فى صورة محمد النبى العربى وهو مالم يكن له مثل قبل القرن السابع الهجرى وجود •

ومن هنا كان سر اقبال أهل مصر على التصوف والايغـــال فى الدخول فيـــه سواء كان بعضه يعتمد على الأصول والعقل والمنطـــق وقواعد الشريعة أو كان بعضه يعتمد على الخرافة والأخيلة واستغلال العواطف الدينية المتأججة فى نفوس الشعب لترويج مزاعم دينيـــة لا سند لها من الشريعة الغراء(١٦) •

٢ ــ كما أن هناك عاملا بالغ الأهمية فى نمو ظاهرة التصـــوف وانتشارها وهو الخطر الذى تعرضت له بلاد الاسلام من انقضاض الغزو الخارجى فالحروب الصليبية تهددت لا أوطان المسلمين فحسب وانما تهددت الاسلام ذاته(١٧) •

---

(١٦) انظر البوصيرة المادح الأعظم للرسول ص ٢٣ للأستاذ عبدالعال الحمامصى سلسلة كتابك اصدار دار المعارف سنة ١٩٧٨ العدد ٣٤ •

(١٧) المرجع نفسه ص ٢٤ •

٣ ــ وفى هــذا القرن عاد الصليبيون الى استعادة بعض المواقع التى حررها صلاح الدين من قبضتهم بجانب العــوامل النفسية التى أحدثها زحف التتار والقضاء على الخلافة الاسلامية فى بغــداد ولولا هزيمتهم فى عين جالوت لأصبحت ديار الاسلام بأسرها نهبا لهم فلاذ الشعب بيت آلامه وبالتوسلات الى الله مستشفعين بنبيه أن يكشف عنــه الغمة •

٤ ــ كذلك كان خروج العرب من أسبانيا عاملا مهما من عوامل انتشار هــذه الظاهرة اذ أحس العرب بالقهر والتمزق والمعــاناة فاتجهو الى التصوف يلتمسون فيه الراحة لنفوسهم •

٥ ــ بالاضافة الى ما كانت تعانيه مصر من الخراب الاقتصادى بسبب كثــرة الحــروب والأوبئة والمجــاعات بيــد أن تلك الكروب والشدائد قوت نزعة التصوف فجنح أغلب الشعب نحو النزعة الدينية والصوفية وتمكنت فى نفوس جماهير الأمة المصرية فى القرن السابع الهجرى ذلك أن النزعة الدينية قوية التأصيل فى الذات المصرية ولعل هــذا ما يفسر لنا أن جماهير المتصوفة قــد رفعت من منــزلة رواد الصوفية الى مكانة تتعادل ومقام النبوة « حتى الفقيه البوصيرى الذى لم يكن شيخ طريقة ولا صاحب نظرية صوفية ولكن لأنه دافــع عن الاسلام ونظم بعض القصائد فى مدح الرسول عليه الصلاة والسلام فقد نسبت اليه المناقب والكرامات لدرجة أن بعض الصوفية زعموا أنه بلغ مقام « الفوقية الكبرى»(١٨) •

كذلك نشط فى هــذا القرن ــ نشاطا ملحوظا ــ شعر المدائح

---

(١٨) المرجع السابق ص ٢٥ •

النبوية بحيث لم يعهد هـذا النشاط فى أى قرن من القرون السالفة وكان بحق أزهى عصور شعر ظهر فى مديح الرسول ﷺ حيث بلـغ فيه أوجه ازدهاره الأدبى .

أما من حيث المضمون أو المحتوى فقـد تناول شعراء المدائح النبوية صفات النبى وأخـلاقه وما تحلى به من كرم الطبـع ولطف الشمائل كما تحدثوا كذلك عن مهابط الوحى ومنازل القرآن ورووا طرفا من سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام فتحدثوا عن نسبه الشريف ونحسبه كما عرضوا لمعجزاته وكراماته وبركاته وقد غلب عليهم جميعـا توسلهم به ﷺ .

وكان قائد الحلبة فى هـذا المضمار والفارس الذى لا يشـق له غبـار فى هذا المجـال الامام البوصيرى على ما سيأتى أبينه فى موضعه من هـذا البحث ان شاء الله .

كل هـذه العوامل مجتمعة كان لها أثرها فى تنشيط حركة الشعر وغزارة انتاجه ووفرة مادته والتعمل فى صناعته وتعـدد اتجـاهاته وتنوع مناحيه فى هـذا القرن ووسمته بسمات كاد يختص بها عمـا سواه ، مما سنعرض له بالتفصيل .

اتجاهات الشـعر فى هـذا القـرن

اتجه الشعر فى هـذا القرن اتجاهات عـدة ولكنى سأقتصر على أهمها وأبرزها فيما يلى :

١ ـ الشعر فى الحروب الصليبية وفى الغزو المغولى :

اتجه الشعر فيما اتجه اليـه فى هـذا القرن الى الحـروب

الصليبية المتكررة والى الغارات التترية التى اجتاحت بعنف وضراوة البلاد الاسلامية فخربتها وحرقتها وشردت أهلها • وقد تركت هذه الحروب وتلك الغارات آثارا ظاهرة فى أدب ذلك العصر تبينتها واضحه فيما أنتجه الشعراء والكتاب ويعنينا هنا فى هذا المقام ما أنتجه الشعراء لأن البحث قائم على نوع خاص من الأدب وهو الشعر •

ومما تجدر الاشارة اليه سلفا ان أقرر أن هذا الاتجاه لم يكن وليد شعراء هذا القرن فقد عرف الشعراء الحروب فى الجاهليه والاسلام وعرفوا حرب الروم منذ تاخمت بلاد الاسلام بلادهم وكان غزو كل واحد من العرب والرومان لصاحبه لا ينقطع فى عصر من العصور ولم يقصر الشعراء فى تمجيد أبطال هذه الحروب ووصف وقائعها وما شعر أبى الطيب وابن فراس وأضرابهما فى وصف هذه المعارك بغريب عنا • اذن فقد اتجه الشعراء قبل هذا العصر الى تسجيل الحروب والغارات وتحدثوا عنها وحفلت دواوين الشعراء فى الجاهلية والاسلام بالشعر الذى يصف تلك الحروب وأبطالها وبهذا يكون الشعر العربى قد حمل الينا مشابها لهذا الاتجاه الذى اتجه اليه شعراء القرن السابع الهجرى بيد أنه على الرغم من وجود ذلك التشابه وأن تلك الاتجاهات متأصلة فى الشعر العربى فان الحروب والغارات التى حدثت فى القرن السابع تمتاز بمظهرها الدينى الذى طبعها بطابع خاص فجعل النزاع فيها صراعا بين دين ودين لا بين فريقين يتنازعان أرضا كما أن ضخامة الجيوش التى استخدمت فيها وما صحب هذه الحروب والغارات — من جانب الأعداء — من قسوة وضراوة وتدمير واجلاء للمسلمين عن أرضهم وقتل علمائهم واحراق منازلهم واتلاف كنوزهم ومدخراتهم العلمية جعل لهذه الاتجاهات من البروز والوضوح وفيضان المظهر الدينى عليها ما ليس لها فيما سلف قبل هذا القرن •

نعم : عرف الاسلام معركة عمورية ومعارك سيف الدولة مع الروم ولكنه لم يعرف مجازر كمجازر القدس وأنطاكية ومعرة النعمان وتدمير بغـــداد •

من أجل ذلك وقف الشعر من هذه المعارك يسجل وقائعها ويحث على اجتياز أزماتها ويشحذ الهمم والعزائم حاضا على الجهـاد فى سبيل الله طالبا من كل المسلمين النجدة والتعاون وليتكاتفوا جميعـا ليقفوا صـفا واحدا أمام هـذا العـدو الشرس وقد سجل الشعر هـذه المحن وصور نبضات القلوب عندها وارتجاف الأفئدة من شدتها وقد تميز هـذا الشعر الذى أوحت به هـذه الحـروب بالحماسـة المتدفقة فى أرجائه وبحرارة العاطفة التى تبعث فى هـذا الشـعر الحياة والقوة وتدل على ما كان يعتمل فى نفوس الشعراء يومئذ من اضطرام نيران الألم ، لاغتصـاب هـذه الأرض من المسلمين ولمـا أصاب سكانها من تشريد وذبح وتقتيل وقـد تلون شعر هـذه الحروب ألوانا شتى اذ جمع بين الحزن والحسرة والفرح والبهجة وبين تمجيد للأبطال وحث على النزال وبين قوة واقدام أو خوف وذعر الى غير ذلك من ألوان العواطف والانفعالات التى ألمت بالأمة فى ذلك الوقت وصورها الأدب وأبقاها على مر الدهور •

ولعل من أشد هـذه الحروب التى انطلق فيها الشعر يثـير الحماس ويذكى نيران العواطف حصار دمياط •

يروى المقريزى أن الفرنج فى معركة « دمياط » حاصروها من البـر والبحر وأحدقوا بها وضيقوا على أهلها ومنعوا الأقـوات أن تصل اليهم وحفروا على معسكرهم المحيط بدمياط خندقا وبنوا عليـه سورا وكانت قـد قلت الأقوات واشتد غلاء الأسعار مما زاد من حالة الكرب والخناق على أهلها •

وكان فى دمياط من أهلها الأمير جمال الدين الكنانى فكتب هـذه الأبيات وألقاها الى الملك الكامل فى سهم نشاب ، وهى :

يا مالكى ، دمياط ثغر هدمت ... شرفاته ، كادت تجث أصوله
يأيها الملك الذى ما ان يرى ... بين الملوك شبيهه وعديله
هذا كتاب موضح من حالتى ... ما ليس يمكننى لديك أقوله
أشكو اليك عدو سوء أحدقت ... بجميعه فرسانه وخيوله
فالبر قد منعت اليه طريقه ... والبحر عز لنصره أسطوله
فخضوعه باد على أبراجه ... وحفيفه ، وبكاؤه وعويله
ولو استطاع لأم بابك لائذا ... لكنه سدت عليه سبيله
فقد انتهت أدواؤه ، وتحكمت ... علاته ، ونحا عليه نحوله
وبقى له رمق يسير ، يرتجى ... أن يشتفى لما دعاك عليله
فاحرس حماه بعزمة تشفى بها ... داء بمثلك ترتجى تعليله
فالله أعطاك الكثير بفضله ... ورضاه من هذا الكثير قليله
فالعذر فى نصر الاله ودينه ... ما ساغ عند المسلمين قبوله
والثغر ناظره اليك محدق ... ما ان عمل من الدموع همول
ولئن قعدت عن القيام بنصره ... جفت نضارته ، وبان ذبوله
ووهت قوى القرآن فيه ورفعت ... صلبانه وتلى به انجيله
وعلا صدى الناقوس فى أرجائه ... وخفى على سمع الورى تهليله
هذا وحقك وصف صورة حاله ... حقا وجملته وذا تفصيله
حقق رجاء فيك يا من لم يخب ... أبدا لراجى جودة تأميله
وادخر ليوم البعث آملا صالحا ... الله ضامن أجره وكفيله(١٩)

---

(١٩) السلوك جـ ١ ص ١٩٩ .

وكان لهذا الشعر أثره فى نفس الكامل حتى انه نادى بالجهاد فى مصر والقاهرة .

ولما اشتد الأمر بالملك الكامل عندما حاصر الفرنج دمياط وبلغ الضيق بالنفوس مبلغا كبيرا كتب الى أخيه الملك الأشرف موسى يستنجد به ويحثه على الحضور وصدر رسالته بالأبيات التالية :

يا مسعدى ان كنت حقا مسعفى
فانهض بغير تلبث وتوقف
واحثث قلوصك مرتلا أو موجفا
بتجشم فى سيرها وتعسف
واطو المنازل ما استطعت ولا تنح
الا على باب المليك الأشرف(٢٠)

وقد كان لهذه الرسالة من الشعر أثرها فقد أقبل الأشرف موسى على عكا وقوى بقدومه أمر الملك الكامل .

ومضى شعر هذه الحروب يمدح المستنجد به ليثير فيه الشعور بالشهامة والنخوة كما مضى الشعراء يمجدون القادة الذين خاضوا غمار هذه الحروب وابلوا فيها بلاء حسنا فسجلوا فى سجل التاريخ أسماءهم وأحاطهم الشعر بحالة من التقديس والاعجاب وخلدهم فى صورة حبيبة الى النفس قريبة الى القلب يزينها الايمان ويجملها اليقين

---

(٢٠) خطط المقريزى جـ٤ ص٢١٢ وقد تقدم ذكر الرسالة فى مناسبة سابقة ص ؟ .

كهذا الذى يقوله البهاء زهير المتوفى سنة ٦٥٦هـ يمدح الملك المسعود يوسف بن الكامل :

الى الملك المسعود ذى البأس والندى
فأسيافه حمر وساحاته خضر
يراعى حمى الاسلام لا زمن الحمى
ويحلو له ثغر المخافة لا الثغر
تكنفه من آل أيوب معشر
بهم نهض الاسلام واندفع الكفر
فيا صاحبى هب لى حقك وقفة
يكون بها عندى لك الحمد والشكر
لدى ملك رحب الخليفة قاهر
فمجلسه الدنيا وخادمه الدهر

الى أن يقول :

وخذ جملا هذا الثناء لأننى
لأعجز عن تفصيله ولك العذر
على أننى فى عصرى القائل الذى
اذا قال بذا القائلين ولا فخر (٢١)

وكانت معركة دمياط التى انتهت بانتصار الكامل مما هزت مشاعر البهاء زهير وحركت وجدانه فأنشأ قصيدة يمدح بها الكامل ويسجل احداث المعركة وما كان لها من أثر فى نفوس المسلمين بدأها مشيدا بفضل الملك فى حماية الدين ورد عادية الفرنج اذ قال :

---

(٢١) ديوان البهاء زهير ص ١٠٣ تحقيق محمد أبى الفضل ومحمد طاهر الجبلاوى دار المعارف سنة ١٩٨٢ ط ٢ .

بك اهتز عطف الدين فى حلل النصر
وردت عـلى أعقـابها مـلة الكفـر

فقـد أصبحت والحـمد للـه نعمة
يقصر عنهـا قدرة الحـمد والشـكر

يقل لهـا بـذل النفوس بشـارة
ويصغر فيهـا كلّ شىء من النـذر

أياديه بيض فى الورى موسوية
وكفها تسـعى عـلى قـدم الخضر

ومن أجله أضـحى المقطم شـامخا
يناقس حتى طور سـيناء فى القدر

ويمضى البهاء فى مدح الكامل ثم يتحدث عن الموقعـة فيذكر أن هـذا النصر لم تفرح به مصر وحـدها ولكن سعد به العالم الاسلامى كله : بغـداد ومـكة والمدينة ولولا هذا الفوز المبين لسرى الذعر فى أرجائه ونواحيه يقول البهاء زهير :

وما فرحـت مصر بذلك وحـدها ... لقد فرحت بغـداد أكثر من مصر
فلو لم تقـم للـه حق قيـامه ... لمـا سلمت دار السلام من الذعر
وأقسـم لولا همـة كامليـة ... لخـافت رجال بالمقام وبالحجر
فمن مبلغ هـذا الهناء بمـكة ... ويثرب ينهه الى صـاحب القبر
فقل لرسـول الله : ان سـميه ... حمى بيضة الاسلام من نوب الدهر
هو الكامل المولى الذى ان ذكرته ... فياطرب الدنيا ويا فرح الدهـر
به ارتجعت دمياط قهرا من العـدا ... وطهرها بالسيف والمـلة الطهر

ويصف طول المعركة وما أبداه الكامل فيها من الثبات والصبر وكيف

انتهى ذلك بمحاصرة العدو فى البر والبحر حصارا دفعه الى الاستسلام فيقول :

ثلاثة أعوام أقمت وأشهرا
تجاهد فيهم لا يزيد ولا عمرو
صبرت الى أن أنزل الله نصره
لذاك قد استحققت عاقبة الصبر
وليلة غزو للعدو وكأنها
بكثرة من أرديته ليلة النحر
فيا ليلة قد شرف الله قدرها
ولا غرو ان سميتها ليلة القدر

وقد أجاد البهاء زهير عندما وصف ما أعده الملك الكامل لهذه المعركة من عدة وعديد حين قال :

سددت سبيل البر والبحر عنهم
بسابحة دهم وسامحة غر
أساطيل ليست فى أساطير من مضى
بكل غراب راح أفتك من صقر
وجيش كمثل الليل : هولا وهيبة
وان زانه ما فيه : من أنجم زهر
وباتت جنود الله فوق ضوامر
بأوضاحها تغنى السراة عن الفجر
فلا زلت حتى أيد الله حزبه
وأشرق وجه الأرض جذلان بالنصر

فرويت منهم ظامى البيض والقنـــا
وأشبعت منهم طاوى الذئب والنسر
وجاءت ملوك الأرض نحوك خضـــعا
تجـــرر أذيـــال المهـــانة والصـــغر

كما أشار البهاء الى استسلام الفرنجة بعد وقوعهم أسرى وقـــد من عليهم المـــلك الكامل فأعطاهم الأمان حسما للشر ورغبة فى الوصول الهدف من غير اسراف فى اراقة الدماء وكان فى امكانه أن يبيدهم عن آخرهم بما لديه من قوة السلاح • وذلك قوله :

فمن عليهم بالأمـــان تـــكرما على الرغم من بيض الصوارم والسمر

ثم يتحدث الشاعر عن تقـــدير المسلمين لدمياط فيقول داعيـــا الله أن يصونها وآن يقيها كل مكروه اذ يقول :

كفى اللـــه دميـــاط المـــكاره انها لمن قبلة الاسلام فى موضع النحر

ويصف اليوم السار الذى دخل فيـــه الكامل دمياط والســـعادة التى غمرت قلوب أهلها لهـــذا الفتح المبين فيقول :

فلله يوم الفتـــح يوم دخولهـــا
وقد طارت الأعـــلام منها على وكر
لقـــد فاق أيـــام الزمـــان بأســـرها
وأنسى حديثـــا عن حنين وعن بـــدر

ويا ســـعد قوم أدركوا فيـــه حظهم
لقد جمعوا بين الغنيمة والأجر(٢٢)

ويختم قصيدته هـــذه بالثناء على المـــلك الكامل فيقول :

يقصر فيك المدح من كل مادح ولو جاء بالشمس المنيرة والبدر(٢٣)

وكان للشعور الدينى أثره فى هـــذا المدح فمنه اقتبست القصيدة كثيرا من أفكارها وخيلتها : فأيادى الممدوح تسعى فى الورى على قدم الخضر ، والمقطم ينافس فى القدر طور سيناء والكامل له فى المـــلا الأعلى أطيب الذكر ومواقفه هى المواقف الغر يوم الحشر وأن حديث الناس عن استرداده دمياط أنساهم الحديث عن يوم بدر وحنين الى غير ذلك من المعانى الدينية التى اقتبس منها تشبيهه فى قوله :

وليـــلة غزو للعـــدو كأنها بكثرة من أرديته ليلة النحر

اذ يشبه تلك الليلة التى كثر فيها تقتيله للعدو بليلة عيد النحر بجامع كثرة ســـيلان الدماء فى كل منهما أما الشعور النفسى فلا يجمع بينهما فشتان بين ليـــلة يملأ الفرح فيها النفوس وتمتلى القلوب بهجة مستقبلة أيام العيد وبين ليـــلة كان الذعر يملأ فيها النفوس وتضطرب فيها الأفئدة خشية حلول كارثة تحيق بالبلاد ويفقد فيها الوطن حريته وكرامته .

غير أن الشاعر يمضى فى تلمس شـــبه دينى فيعقـــد صـــلة بين

---

(٢٢) انظر القصيدة كاملة فى ديوانه ص ٩٩ ـ ١٠٢ دار المعارف ط ٢ سنة ١٩٨٢ تحقيق محمد أبى الفضل ومحمد طاهر الجبلاوى .

هـذه الليـلة وليـلة القـدر فيقول :

فيا ليلة قد شرف الله قـدرها ولا غرو ان سميتها ليلة القدر

يريد أن يقول : اذا كانت ليلة القدر تبدأ وضيئة معروفا قـدرها يبتهل الناس فيها بالدعوات راجين من الله فيها تحقيق آمالهم بقلوب مطمئنة فان ليلة القتال لم تستقبل بمثل هـذه الطمأنينة ولم يكن أمرها واضحا بين الناس ولا نتيجتها معروفة معرفة ليلة القدر • ولكن الشاعر بعد أن ظهرت نتيجة تلك الليلة وما أعقبته من نصر شبهها بليلة القدر فهى لا تشبه ليلة القدر الا بعـد أن انقضت وتبين أمر القتال فيهـا وانحسمت النتيجة فيها لصالح المسلمين ولمـا دالت الدولة الأيوبيـة وجاءت دولة المماليك تابع بعض سلاطينها الجهاد ضـد الأعـداء من الفرنجة والتتار وقد التف الشعراء حول ثلاثة من هـؤلاء السـلاطين يمدحونهم لمـا نهضوا به من عبء قتال الفرنجة ووقوفهم فى وجـه التتار لصد غاراتهم بل واسترداد البـلاد من أيـديهم واسترجاع ما اغتصب من ديار الاسلام والسلاطين الثلاثة هم : بيبرس وقلاوون وابنـه الأشرف خليل اذ أقبل الشعراء يمدحون بطولاتهم ويسجلون خطواتهم فى الحرب مقترنة بالاجـلال والاكبار والتعظيم والاعجاب فحينما تصدى « بيبرس » لحرب الفرنج والتتار وقام يلاحقهم لابعادهم عن البلاد هزت تلك الجهود مشاعر جمال الدين بن الخشاب فانطلق لسانه بالثناء عليـه ومما قاله فيه مثنيا على جهوده :

قصـد المـلوك حماك والخلفاء فافخـر فان محـلك الجـوزاء

ملك تزينت الممـالك باسـمه وتجملت بمديحـه الفصـحاء

كم للفـرنج وللتتار يهـابه رسـل منـاها العفو والاعفـاء

وطريقـــه لبـــلادهم موطـــوءة
وطـــريقهم لبـــلاده عـــذراء
دامت له الدنيـــا ودام مخـــلدا
ما أقبل الاصـــباح والامســـاء(٢٣)

وحين فتح « المنصور قلاوون » حصن المرقب سنة ٦٧٨هـ وهو من الحصون المشهورة بالمنعة والحصانة يقول عنه صـــاحب النجـــوم الزاهرة : « وكان هـــذا الحصن كبيرا جـــدا لم يفتحه صلاح الدين فيما فتح فلما استولى عليه قلاوون مضى الشعراء يمدحونه وأنشأوا فى ذلك قصائد عدة منها قول الشهاب محمود مسجلا لقلاوون حلمـــه وعظم همته :

اللـــه أكبر هـــذا النصـــر والظفر
هـــذا الفتح لا ما تزعم الســـير
هذا الذى كانت الآمال ان طمحت
الى الكواكب ترجـــوه وتنتظـــر
فانهض وسر واملك الدنيا فقد تحلت
شوقا منابرها وارتاحت الســـرر
كم رام قبلك هذا الحصن من ملك
فطال عنـــه وما فى باعه قصـــر
وكيف تمنحـــه الأيـــام مملـــكة
كانت لدولتـــك العـــزاء تدخـــر

---

(٢٣) خطط المقريزى جـ ٤ ص ٢١٧ .

وكيف يسمو اليها من تأخـــر عن
اســعاده منجداك : القــدر والقــدر
غر العدا منك حــلم تحتـــه همم
لأشقر البرق من تجحيلهــا غـــرر
لها وان شــبهت لطف النسيم سرى
معنى العواصف لا تبقى ولا تذر(٢٤)

وظفر ابنه « الأشرف خليل » بتقــدير عظيم من الشعراء فمضوا يصورونه فى صور محببة الى النفوس حيث تم علىيديه فتح«عكا» آخــر المعارك التى تم فيها القــاء الفرنج فى البحر واستولى الأشرف خليل على ما بقى فى أيديهم من البــلاد وكانت معركة عــكا آخـــر المعــارك التى دارت بين المسلمين والفرنج وعادت البــلاد كلها الى الاسلام وكان بطل هذه المعركة وقائدها « الأشرف خليل بن قلاوون » فهو الذى هيأ لها جيشا لجبا وقاد بنفسه المعركة .

وقد كان لهذه المعركةصداهافىالأدب العربى اذ أكثر الشعراء من الحديث عن هــذا الفتح وأطال بعضهم اطالة تتناسب وقيمــة هــذا الفتح العظيم من ذلك ما أنشأه « شهاب الدين محمود » وقد بــدأ قصيدته شاكرا الله متحدثا عن تحقق أمل كان المسلمون يعدونه بعيد التحقق عسير المنــال .

يقول شــهاب الدين :

الحمــد الــه ذلت دولة الصــلب
وعز بالترك دين المصطفى العـــربى

---

(٢٤) النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٢١٧ .

هــذا الذى كانت الآمال لو طلبت
رؤياه فى النوم لاستحيت من الطلب
ما بعد عــكا وقد هدت قواعــدها
فى البحر للشرك عند البــر من أرب
عقيله ذهبت يــدى الخطوب بهــا
دهرا وشــدت عليهــا كف مغتصب
لم يبق من بعدها للكفر اذ خــربت
فى البر والبحر ما تنجى سوى الهرب

ويمضى الشاعر ممجدا الأشرف « خليل » فيقول :

ليث أبى أن يــرد الوجــه عن أمم
يدعــــو رب الورى ســبحانه بأب
لم يلهــه ملــكه بل فى آوائــــله
نال الذى لم ينله النــاس فى الحقب

ثم ينتقل الى وصف آثار هــذا الفتح وكيف أنس بعظمة نتائجه وضخامة هدفه ما سبقه من فتوح وما حفظــه التاريخ من أيام نصر مجيدة ويبين أن الشعر والخطب لا يستطيعان الوفاء بالحــديث عن مجــد هــذا اليوم الخالد وكيف لا ؟ وقد كان أهــل الأعصر الأولى يرقبونه ويرجونه ولكن الله قــد ادخره لهــذا العصر السعيد وقــد أغضب هــذا اليوم الفرنج بابادتهم وبهذا الغضــب رضى الله وس الرسول الكريم وابتهجت الكعبة الغراء ووفض النبأ السار يجوب أنحاء الأرض وذلك قوله :

يا يوم عكا لقــد أنسيت ما سبقت
به الفتوح وما قد خط فى الكتب

لم يبلغ النطق حد الشكر فيك فما
عسى يقوم به ذو الشعر والخطب
كانت تمنى بك الأيام عن أمم
والحمد لله شاهدناك عن كثب
أغضبت عبد عيسى اذ أبدتهم
لله أى رضا فى ذلك الغضب
وأطلع الله جيش النصر فابتدرت
طلائع النصر بين السمر والقضب
وأشرف المصطفى الهادى البشير على
ما أسلف الأشرف السلطان من قرب
فقر عينا بهذا الفتح وابتهجت
بفتحه الكعبة الغراء فى الحجب
وسار فى الأرض سير الريح سمعته
فالبر فى طرب والبحر فى حرب

وبعد حديث طويل عن وصف المعركة وما أبلاه المسلمون فيها وما أصيب به الصليبون يختم القصيدة بمدح الأشرف والدعاء له اذ يقول:

علا بك الملك حتى ان خيمته
على الثريا غدت ممدودة الطنب
فلا برحت عزيز النصر مبتهجا
لكل فتح مبين المنح مرتقب(٢٥)

---

(٢٥) فوات الوفيات لمحمد بن أحمد الكتبى ط بولاق سنة ١٢٩٩هـ جـ ١ ص ١٥٣ وما بعدها .

وأنشد غير شهاب الدين محمود من الشعراء قصائد ومقطوعات في فتح عكا التي كانت نهاية مطاف الحروب الصليبية ولا يتسع المقام لذكرها هذا ولا يفوتني هنا أن أشير الى أن شعراء هذا القرن قد اقتدوا بأسلافهم في مناهج الشعر ونظام العقيدة حيث كان ينبوع الشعر الذي يستقون منه هو الشعر العربي القديم ، ولذلك فان التقليد في قصيدة الشهاب واضح جلي حيث اتخذ من قصيدة المتنبي في مدح المعتصم وفتح عمورية منهجا وطريقا سار عليه في مدحه السلطان الأشرف خليل وفتحه عكا .

وحين أعلن « قطز » أنه سيلقى التتار بنفسه وجمع الأمراء في غزة وحثهم على استنقاذ الشام من التتار ونصرة الاسلام والمسلمين وتحالفوا على أن يبذلوا قصارى جهدهم في قتال الأعداء وانتهت تلك الروح المعنوية بانتصار المسلمين على التتار في معركة عين جالوت سنة ٦٥٨هـ الشهيرة ومضت الرسائل تحمل بشرى هذا النصر أقبل الشعراء يمجدون قطز يشيدون بجهاده من ذلك ما قاله أبو شامة المقدسي المتوفى سنة ٦٦٥هـ .

غلب التتار على البلاد فجاءهم
من مصر تركي يجود بنفسه
بالشام أهلكهم وبدد شملهم
ولكل شيء آفة من جنسه(٢٦)

ومن ذلك أيضا ما قاله الشيخ شرف الدين عبد العزيز الأنصاري المتوفى سنة ٦٩١هـ :

---

(٢٦) ذيل الروضتين لابي شامة طبع مصر سنة ١٩٤٧م الطبعة الاولى ص ٢٠٨ .

نازلت أمـلاك التتـار فأنـزلت
عن فحلهـا قسرا وعن اكديشـها

فغـدا لسـيفك فى رقـاب كماتها
حصـد المنـاجل فى يبس حشيشها

وطويت عن مصـر فسـيح مراحـلا
ما بين بركتها وبين عريشـها

حتى حفظت على العبـاد بلادها
من رومها الأقصى الى أحبوشها (٢٧)

ولعل من أعظم المعارك مع التتار تلك التى وقعت سنة ٦٧١هـ على شاطىء الفرات حين خاض « الظاهر بيبرس » الفرات على رأس جيش كبير عبر به الى التتار فأباد عددا كبيرا منهم وأسر منهم زهاء مائتين ولم ينج سوى القليل منهم • وقد أعجب الشعراء بهذا اللون من الاقدام وأشادوا به فى شعرهم من ذلك ما قاله شهاب الدين محمود مثنيا على بيبرس :

خضت الفرات بسـابح أقصى منى
هوج الصـبا من نعلة آثـار

حملتك أمواج الفرات ومن رأى
بحـرا سواك تقـله الأنهـار

وتقطعت فرقا ولم يك طـودها
اذ ذاك الا جيشك الجـرار

---

(٢٧) المختصر فى أخبار البشر لابى الفداء • المطبعة الحسينية المصرية • الطبعة الاولى جـ٣ ص ٢٠٦ •

رشـــت دماؤهم الصـــعيد فـــلم
منهم على الجيش السعيد غبـــار
فـــلا ملأن الدهـــر فيـــك مدائحـــا
تبقى بقيت وتذهب الأعصـــار(٢٨)

كما ذكر تلك الموقعة محيى الدين بن عبد الظاهر المتوفى ســـنة ٦٩٢هـ وأشاد بجيش المسلمين • قال :

تجمـــع جيش الشرك من كل فرقـــة
وظنوا بأنا لا نطيـــق لهـــم غلبـــا
وجاءوا الى شط الفرات وما دروا
بأن جيـــادا تقطعهـــا وثبـــا
وجاءت جنود الله فى العدد التى
يميس لها الأبطال يوم الوغى عجبا
فعمنا بسد من حديدا ســـباحة
اليهم فما اســـتطاع العدو له نقبا(٢٩)

وغير شهاب الدين وابن عبد الظاهر من الشعراء كثيرون أشادوا بانتصار المسلمين على التتار من أمثـــال : الشـــيخ ناصر الدين حسن ابن النقيب ، ويدر الدين يوسف بن المهمندار وغيرهما ذكرهم صاحب النجوم الزاهرة وابن شاكر الكتبى فى فوات الوفيات وأورد كثيرا من أشعارهم وان كانوا قد اقتدوا بأسلافهم فى مناهج الشعر ونظـــام

---

(٢٨) النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ١٥٩ •
(٢٩) فوات الوفيات جـ ١ ص ٨٧ •

القصيدة الا أن بعضهم قد رق أسلوبه وضعف حتى لتصبح ألفاظه عاميـــة مبتذلة •

وعلى كل حال فقد أثارت تلك المعارك ألوانا عديدة من الاحساسات والمشاعر وحركت كوامن الوجدان لدى الشعراء وأظهرت صدق عواطفهم نحو الاســـلام والمسلمين فاندفعوا يعبرون عن تلك العواطف وهـــذه الأحاسيس والمشاعر كل حسب موهبته وقدرته البيانية على التعبير فاتجه الشعر فى هـــذا القرن ـــ أكثر من غيره من القرون السالفة ـــ الى تلك الحروب يســـجل أحداثها ويشـــيد بها ممجدا أبطالها مثيرا فى المسلمين الحمية الاسلامية دفاعا عن ديار الاسلام وصونا للأعراض وحماية للدين من عبث الأعداء ومن هنـــا فانه كان يعـــد كل نصر على العـــدو ريحا وكل معركة يظفر فيها تقدما وفوزا فيشيد بها ويتفـــاءل بالنجاح فيها • ولهذا يستطيع المؤرخ لحروب هـــذا القرن أن يجد فى الشعر صدى ما يتحدث عنه •

هـــذا • ولا يعترض بأن الشعر الحماسى الذى قيـــل فى تلك المعارك موجود فى الشعر العربى من لدن العصر الجاهلى ، ذلك أن هناك فرقا بين هـــذا الشعر الذى ظهر بسبب الحروب الصليبية والنتـــرية وبين الشعر الذى قيل قبله مما قاله العرب أنفسهم فى جزيرتهم حيث نجد الباعث قبل هـــذا القرن ـــ فى أكثر الأحوال ـــ قبليا أو حوادث لا يسيطر عليها الدين سيطرة كاملة بينما نجد الباعث على الشـــــعر الحماسى فى عصر الحروب الصليبية والنترية هو الدين وحده بالاضافة الى الاتجاه فى الشعر القديم كان تمدحا بالشجاعة الفردية أما اتجاه الشعر الحماسى فى عصر الحروب الصليبية فانه اتجاه الى التمدح بقوة الجيوش وحسن اعدادها وشجاعة أبنائها وما أصابته من عدوها(٣٠) •

---

(٣٠) انظر الحياة الادبية فى عصر الحروب الصليبية ص ٥٠٦ •

٢ ــ الاتجاه الدينى والمدائح النبوية

كان لهــذا القرن أثر بالغ فى الهيمنة الدينية على نفوس الشعب، خاصة وأن هذا القرن والذى قبله شهد أعنف صراع دينى تجلى فى تسمية الحروب التى وقعت فيهما باسم الحروب الصليبية لأن الفرنج اتخذوا الصليب ــ وهو رمز المسيحية ــ شــعارا لهم ولأنهم كانوا يريدون الاستيلاء على بلاد الاسلام وفتح بيت المقدس وكل ذلك أمور تتعلق بالدين فكان هــذا القرن عصر صــدام بين عقيدتى الاســـلام والمسيحية ومن لف لفها من اليهودية وغيرها فقــد أخــذ النصــارى ومن آزرهم من اليهــود يلوحون بأيديهم فى وجـــه الدين الحنيف وصاحبه ومضوا يؤلفون الرسائل المنكرة فى دحض رسالته ونبــوته ، وكانت أوربا قــد أقبلت بقضها وقضيضها من أقصى شــماليها الى أقصى جنوبيها تحــاد الله ورسوله ، ومضت الأمة الاسلامية ممثــلة فى كل من مصر والشام تجاهدهم جهــادا عنيفا لا هوادة فيه ، ولم تلبث الأمة الاسلامية أن سحقت جموع الصليبيين فى معارك متعاقبة واستعادت بيت المقدس من أيديهم بعــد أن كانوا قد استولوا عليــه واستسلموا لقوة المسلمين خاضعين حتى طهرت بلاد الاسلام منهم وفى هــذه الأثناء كان علماء الدين يحمسون الشباب فى دروســهم ومواعظهم كما كانوا يكتبون رسائل كثيرة فى فريضة الجهاد تتلى على المجاهدين فى صفوف القتال تستثير حميتهم ولم يتخلف الشعر عن ركب تلك المعــارك فقد مضى الشعراء ينظمون ما لا يحصى من القصائد تحاثين على الجهاد محرضين مستنهضين العزائم لجهاد أعداء الاسلام ــ كما ســبق أن بينت ــ واتخــذ الشــعراء من مديح النبى ﷺ أداة لهــذا التحريض وأطالوا فى وصف نضــاله هو وأصحابه ضــد الشرك كى يشعلوا نار الحماســة فى قلوب المسلمين حتى لا يتوانوا عن جهاد أعداء الاسلام .

ويعلو صوت الشعراء فى مدح رسول الله ﷺ فى كل مكان ويتكاثر فى كل بيئة وخاصة بيئة المتصوفة الذين جعلوا محبة الرسول جزءا من محبة الذات الالهية كالذى احتواه ديوانا كل من ابن الفارض المتوفى سنة ٦٣٢هـ وابن عربى المتوفى سنة ٦٣٨هـ وكأنما كانت الحرب الصليبية من أهم الدوافع فى سريان هذا الاعتقاد اعلاء للرسول ﷺ على المسيح وما أسبغ عليه أصحاب الصليب من الأسماء والصفات الالهية(٣١) .

ولهذا فلا نعجب اذا رأينا من شعراء الاسلام قاطبة تمجيدا لرسالة الاسلام واعزازا لمبادئه وثناء على صاحب رسالته واشادة بأمجاده وفضائله ﷺ .

وقد مثل هذا القرن فى هذا الاتجاه أتم تمثيل شرف الدين محمد بن سعيد البوصيرى المتوفى سنة ٦٩٦هـ . فقد انبرى للرد على النصارى وتوضيح عقيدة الاسلام من مثل قوله :

دع ما ادعته النصارى فى نبيهم
واحكم بما شئت مدحا فيه واحتكم(٣٢)

وقوله :

لم تقل فيك مقال النصارى
اذ أضلوا فى المسيح الصوابا

---

(٣١) انظر فصول فى الشعر ونقده د/ شوقى ضيف ص ٣٣٢هـ مطبعة دار المعارف بمصر سنة ١٩٧١ .

(٣٢) ديوان البوصيرى ص ٢٤١ تحقيق محمد سيد كيلانى طبع الحلبى سنة ١٩٧٥م .

أنمـــا أنت نذيـر مبـــين
أنزل الله عليك الكتـــابا(٣٣)

وكان قد أنشأ قصيدة طويلة فقـد فيها مزاعم اليهـود والنصارى من انكارهم بعث النبى ﷺ وانكاره على النصارى ادعاءهم ألوهيـة المسيح وانكاره كذلك على اليهود ما ادعوه من أن المسيح صلب وقتـل ويمضى فيناقش النصارى فى نظرية التثليث واليهود فى نظرية البداء على الله وأنه قـد تظهر له المصلحة فى شىء بعد أن كانت خافية عليه ويتحدث البوصيرى عن قتل اليهود للأنبيـاء واتخـاذهم العجل وعن عداوتهم للاسلام وكيدهم له منذ ظهوره ونقضهم للعهود التى كانت بينهم وبين الرسول ﷺ وتأليبهم قريشا وغطفان وجمعهم الأحـزاب عليـه فى غزوة الخندق وقد بين سبب نظمه لتلك القصيدة حيث قال « لمـا رأيت كتب النصارى واليهود الآن مشحونة بما ينكرونه من بعثة النبى ﷺ وفيها القول بخلاف ما يدعونه من ألوهيـة المسـيح ومن صلبه واثبات رسالته الى النصارى واليهود وما لا يخفى تعرضت فى هـذه القصيدة الى ذكر ما سهل نظمه من ذلك وأردت أن أورد تحت كل أبيات منها ما أشارت اليه : من النصوص التى لا يستطيع النظـم ذكرها .

ومضى البوصيرى يورد أقوال التوراة والانجيل ما يرد به على الطائفتين ويورد من القصيدة جزءا جزءا شارحا كل جـزء لأنه رأى ما فيها من أفكار يحتاج الى شرح وتوضيح وسماها « المخرج والمردود

---

(٣٣) الديوان ص ٨٧ .

على النصارى واليهود » بدأها بقوله :

جاء المسيح من الاله رسولا
فأتى أقل العالمين عقولا
قوم رأوا بشرا كريما فادعوا
من جهلهم لله فيه حلولا
وعصابة ما صدقته وأكثرت
بالافك والبهتان فيه القيلا
فكأنما جاء المسيح اليهم
ليكذبوا التوراة والانجيلا
فأعجب لأمته التى قد صيرت
تنويهها بالهها التنكيلا
هم بجلوه ببباطل فابتزه
أعداؤه بالباطل التبجيلا
وتقطعوا أمر العقائد بينهم
زمرا ألم تر عقدها محلولا(٣٤)

ويدل شعره على تعمقه فى دراسة أصول الدين فقد ظهر فيه الطابع الدينى يتجلى فى القصائد الكثيرة التى مدح بها رسول الله ﷺ وأشهر هذه القصائد البردة التى نالت شهرة واسعة فى العالم الاسلامى وترجمت الى الفرنسية كما ترجمت الى الألمانية والانجليزية(٣٥) :

---

(٣٤) الديوان ص ١٧٥ ، ١٧٦ .

(٣٥) فضول فى الشعر ونقده ص ٢٤٦ .

وقد استهل البوصيرى قصيدته استهلالاً تقليديا سالكا فيها مسلك القدماء ومنتهجا منهجهم من حيث الوقوف على الأطلال وبكاء الديار وتذكر الأحبة وقد كان هذا الاستهلال محببا للقدماء لأنه يحرك المشاعر ويثير العواطف ويمهد للغرض الأساسى الذى من أجله أنشئت القصيدة ــ ويعد هذا حرصا من البوصيرى على متابعة الأقدمين وانتهاج منهجهم فى افتتاح القصائد بالنسيب على مألوف عادتهم .

ولما كانت القصيدة مدحا للرسول منبعثا عن حبه العارم له فقد بدأها بالحديث عن الحب الذى لا يستطيع صاحبه اخفاءه والذى يثور فى القلب عند رؤية طيف الحبيب :

أيحسب الصب أن الحب منكتم
ما بين منسجم منه ومضطرم
لولا الهوى لم ترق دمعا على طلل
ولا أرقت لذكر البان والعلم
فكيف تنكر حبا بعدما شهدت
به عليك عدول الدمع والسقم ؟

وبعد هذا الغزل انتقل الى وجوب استماع نصح الناصح وأن الشيب يدفع الى العمل بالنصح لولا أن النفس أمارة بالسوء وهنا وجد الشاعر مجالا للتحذير من هوى النفس والجد فى كسر جماحها فالخير كل الخير فى كسر شهوتها وصرف هواها يقول البوصيرى :

محضتنى النصح لكن لست أسمعه
ان المحب عن العذال فى صمم
انى اتهمت نصح الشيب فى عذل
والشيب أبعد فى نصح عن التهم

فـــان أمارتى بالســـوء مـــا اتعظت
من جهلهـــا بنـــذير الشـــيب والهرم

الى أن يقول :

والنفس كالطفل : ان تهمله شب على
حب الرضاع وأن تفطمه ينفطم
فاصرف هـــواها وحاذر أن توليـــــه
ان الهوى ما تولى يصـــم أو يصـــم

ثم ينتقل انتقـــالا طبعيـــا الى مدح رســـول الله ﷺ وكان أول ما ســـجله من فضـــائل الرسول زهـــده :

وشد من ســـغب أحشـــاءه وطوى
تحت الحجـــارة كشحا مترف الأدم
وراودته الجبال الشم من ذهب
عن نفســـه فأراها أيمـــا شـــمم

ويمضى الشاعر يتحدث عن اعجـــابه الذى لا حـــــد له بالنبى ﷺ وذلك حين يقـــول :

محمد ســـيد الكونين والثقلين والفريقين من عـــرب ومن عجم
خلق النبيين فى خلق وفى خلق ولم يدانوه فى علم وفى كـــرم
فهو الذى تم معناه وصـــورته ثم اصطفاه حبيبا بارىء النسم
منزه عن شريك فى محاســـنه فجوهر الحسن فيه غير منقسم
أعيا الورى فهم معناه فليس يرى فى القرب والبعد فيه غير منفحم

هذا الاعجاب الذى لا تقيده حدود سوى أن محمدا بشر وليس الاها على حد قوله :

فمبلغ العلم فيه أنه بشر وأنه خير خلق الله كلهم

وأنه فوق طبقة الرسل أجمعين وأنهم كلهم يستمدون فضائلهم منه ويأخذون عنه العلم والمعرفة .

وكل آى أتى الرسل الكرام بها فانما اتصلت من نوره بهم
فانه شمس فضل هم كواكبها يظهرن أنوارها للناس فى الظلم

ويختم قصيدته مستشفعا برسول الله ﷺ أن يأخذ بيده يوم الحساب داعيا الله أن يغفر زلاته وهفواته فالله غفور رحيم رحمته وسعت كل شىء اذ يقول مناجيا رسول الله :

يا أكرم الرسل ما لى من ألوذ به سواك عند حلولى الحادث العمم
يانفس لا تقنطى من زلة عظمت ان الكبائر فى الغفران كاللمم
لعل رحمة ربى حين يقسمها تأتى على حسب العصيان فى القسم
يارب واجعل رجائى غير منعكس لديك واجعل حسابى غير منخرم
والطف بعبدك فى الدارين انله صبرا متى تدعه الأهوال ينهزم(٣٦)

وله قصيدة أخرى همزية مدح بها الرسول وطال نفسه فيها حتى بلغت ستة وخمسين وأربعمائة بيت ، وقد بدأها مستوحيا روح العصر حينذاك فى رفع النبى محمد فوق جميع الرسل حتى أبيه آدم فيقول:

---

(٣٦) انظر القصيدة كاملة فى ديوانه من ص ٢٣٨ الى ص ٢٤٩ وعدد أبياتها ١٦٢ بيتا .

كيف ترقى رقيك الأنبيـاء يا سـماء ما طاولتها سـماء
لم يساووك فى علاك وقد حال سنا منك دونهم وسـناء
لك ذات العلوم من عالم الغيـب ومنها لآدم الأسـماء
أنت مصـباح كل فضل فما تصـدر الا عن ضـوئك الأضـواء

ويظل يتحدث عن أمجاد النبى محمد منذ كان فى ضـمير الكون يختار الله له الآباء والأمهات وعما صاحب مولده من آيات بينات تدل على أن الكون قد فرح بظهوره وسـعد العالم كله بقـدومه ويمضى البوصيرى يتتبع حياته ﷺ مرحلة بعد أخرى وما بدا فى كل منها من معجزات ثم يعود نبيرز أثر العصر ــ عصر الشاعر البوصيرى ــ فى هـذا النقاش الذى ناقش به كلا من عقيـدتى المسـيحية واليهودية وموقفهما من الاسلام ، فيشير الى الخصومة الحادة والعداوة المبغضة لكل منهما الأخرى ومع ذلك فانهما يتعاونان ضد الاسلام • ولنستمع اليه يقول :

قوم عيسى عاملتم قوم موسى بالذى عاملتكم الحنفاء(٣٧)
صـدقوا كتبـكم وكذبتم كتبهـم ان ذا لبئس البـواء(٣٧)
لو جحدنا جحودكم لاسـتوينا أو للحق بالضلال استواء
ما لكم اخـوة لكتاب اناسـا ليس يرعى للحق منكم اخاء
يحسـد الأول الأخـير ومازال كـذا المحـدثون والقـدماء
بينـة توارثهـم والأناجيـل وهم فى جحـوده شركاء

(٣٧) يقصد بالحنفاء المسلمين ويقصد بالبواء المساواة بين العقيدتين وعقيدة الاسلام •

الى أن يبين عما تنطوى عليه قلوبهم من البغضـــاء للنبى محمد ﷺ فيقول :

كيف يهـدى الاله منهم قلوبا حشـوها من حبيبه البغضاء

ويأخذ فى تفنيد مزاعمهم حول عقيدة التثليث والبداء وما اليهما من عقائدهم الفاسدة ونظرياتهم الباطلة فيقول :

خبرونا أهـل الكتـابين من أين أتاكم تثليثكم والبـداء
ما أتى بالعقيـدتين كتـاب واعتقاد لا نص فيه ادعاء
والدعاوى مالم تقيموا عليها بينـان أبنـاؤها أدعيـاء
أ إله مركب ؟ ! ما سـمعنا باله لذاته أجـزاء
أهو الراكب الحمـار ؟! فيـا عجز اله يمسـه الاعيـاء
أم جميـع على الحمـار لقد جل حمار بجمعهم مشـاء
أم هو ابن الله ما شـاركته فى معـانى البنوة الأنبيـاء
قتلته اليهود فيما زعمتم ولأمواتكم به احيـاء
ان قولا أطلقتموه على اللـه تعـالى ذكرا لقـول هـراء

ثم يتحدث عن اليهود خاصة فى الأبيات التـالية بعد أن أجمل الحديث عنهم مع النصارى فيقول :

مثـل ما قالت اليهـود وكل لزمته مقـالة شـنعاء

اذ هم استقرءوا البداء(٣٨) وكم ساق وبالا اليهم استقراء
وبداء فى قولهـم تدم الله على خـلق آدم أم خطـاء

---

(٣٨) البداء : هو ظهور مصلحة لله فى شىء بعد خفائها عنه . تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

أم محا الله آية الليل ذكرا بعد سهو ليوجد الامساء
أم يدا للاله فى ذبح اسحا ق وقد كان الأمر فيه مضاء
لا تكذب ان اليهـود وقد زاغوا عن الحـق معشر لؤماء
جحدوا المصطفى وآمن بالطاغوت قوم هم عندهم شرفاء
قتلوا الأنبياء واتخـذوا العجـل ألا انهم هم السـفهاء

وبعد حديث طويل وازن فيه بين عقيدتى اليهود والنصارى وبين العقيـدة الاسـلامية وحنيفيتها وحراس تلك العقيـدة من الخلفـاء الراشدين وعظماء الصحابة الذين بذلوا كل مرتخص وغال حماية ودفاعا وتثبيتا لعقيدة الاسلام ــ بعد كل ذلك ــ يتجه الى الرسول يناجيه :

يا نبى الهدى استغاثة ملهو ف أضرت بحاله الحوباء
ان لى غـيرة وقد زاحمتنى فى معانى مديحك الشعراء
وتقلبى فيـك المغـلو وانى للسانى فى مدحك الغلواء
لم أطق فى تعداد مدحك نطقى ومرادى بذلك استقصاء
فسلام عليـك منك فما غـيرك منه لك السـلام كفـاء

وللبوصيرى قصيدة ثالثة سماها « ذخر المعاد فى معارضة بانت سعاد » غير أنه لم يبدأها بالغزل كما بدأ « كعب » قصـيدته وانما بدأها بتوجيه النصيحة أن يسرع المرء الى التوبة وأن يبتعد عن الانهماك فى اللذات فيقول :

الى متى أنت باللذات مشـغول وأنت عن كل ما قدمت مسئول

---

(٣٩) انظر القصيدة فى ديوانه من ص ٤٩ ــ ص ٧٧ .

أرجوزة سماها « الوافية » . أما فى العروض فله منظومة تسمى « المقصد الجليل فى علم الخليل » من بحر البسيط(٥١) .

أما ابن مالك المتوفى سنة ٦٧٢هـ فقد ذاع صيته واتسعت شهرته فى هذا المجال فله عدا ألفيته المشهورة منظومات فى النحو والصرف والقراءات أشهرها ما يلى :

١ ــ « الكافية الشافية » وهى أرجوزة نحوية فى ثلاثة آلاف بيت(٥٢) . يقول فى أولها :

قال ابن مالك محمد وقد ... نوى افادة بما فيه اجتهد
الحمد لله الذى من رقده ... توفيق من وفقه لحمده

٢ ــ « لامية الأفعال » . وهى منظومة صرفية من بحر البسيط تقع فى أربعة عشر بيتا فى أبنية الأفعال(٥٣) .

٣ ــ منظومة « فى المقصور والممدود » واوية فى اثنين وستين ومائة بيت ضمنها معظم الكلمات التى تنتهى بألف مقصورة أو ممدودة(٥٤) .

٤ ــ « كتاب الأعلام فى مثلث الكلام » أرجوزة فى نحو ثلاثة آلاف بيت. وكان قد أهداها الى الناصر محمد صلاح الدين. ذكر

---

(٥١) مخطوطة بدار الكتب رقم ٦٨ عروض .
(٥٢) مخطوطة بدار الكتب رقم ٢٦٤ نحو .
(٥٣) مخطوطة بدار الكتب رقم ١٨٤ علم الصرف .
(٥٤) مخطوطة بدار الكتب رقم ٣٩٠ لغة عربية .

فيها الألفاظ التى لكل منها ثلاثة معـان باختلاف حركاتها ورتب تلك الألفاظ على الأبجدية(٥٥) .

٥ ــ قصيدتان فى القراءات احداهما دالية يقول فيها :

ولابد من نظمى قوافى تحتوى لما قد حوى « حرز الأمانى»وأزيدا

والثانية لامية يقول فى آخرها :

وزادت على « حرز الأمانى »(٥٦) افادة
وقد نقصـت فى الجـرم ثلثا مكمـلا

غير أن ابن مالك كانت شهرته ميدان النحو والصرف أشـهر . ولهذا لمـا مات سـنة ٦٧٢هـ رثاه «شرف الدين الحصنى بقصـيدة استخدم فيها الاصطلاحات العلمية للمادة التى شهر بها اذ ورى فيها باصطلاحات النحو واجتهد فى أن يملأها بهذه المصطلحات ومما جاء فيها قوله :

يا شتات الأسماء والأفعـال بعد موت ابن مالك المفضال
وانحراف الحروف من بعد ضبط منه فى الانفصال والاتصال
مصـدرا كان للعـلوم باذن الله من غـير شـبهة ومحـال
عـدم النعت والتعطف والتوكيد مسـتبدلا من الابدال
ألم اعتراه آسـكن منـه حركات كانت بغير اعتـلال

---

(٥٥) والكتاب موجود بدار الكتب يحمل رقم ١٩ ش لغة عربية ويقع فى ١٤٥ صـفحة .

(٥٦) وحرز الامانى هى احدى قصائد ثلاث كان قد نظمها (الشاطبى) المتوفى سنة ٥٩٠هـ فى علم القراءات .

يالهـا سـكتة لهمز قضـــاء أورثت طول مدة الانفصـال
رفعوه فى نعشـه فانتصـبنا نصب تمييز كيف سير الجبال
صرفوه يا عظـم ما فعلوه وهو عدل معرف بالجمـال
أدغموه فى التراب من غير مثل سالمـا من تغير الانتقـال
وقفوا عنـد قبره سـاعة الدفن وقوفا ضرورة الامتثـال
ومددنا بالأكف تطلب قطـرا سـكنا للنزيل من ذى الجلال
يالسـان الأعراب يا جامع الاعراب يا مفهما لكـل مقـال
يا فريد الزمان فى النظم والنثر وفى نقل مسندات العوالى(٥٧)

وكما اتجه العلماء الى نظم العلوم حفظا لقواعدها اتجه الشعراء الى استخدام اصـطلاحات العلوم يودون بها كما رأينا فى قصيدة الحصنى فى رثاء ابن مالك وفيما نظمه « أحمد بن فرج الاشبيلى » المتوفى سنة ٦٩٩هـ أحد رجال الحـديث فى قصـيدة جامعة لأنواع مصطلح الحديث قال فى أولها :

غرامى صحيح والرجا فيك معضل وحزنى ودمعى مرسل ومسلسل
وصبرى عنكم يشـهد العقل أنه ضعيف ومتروك وذلى أجمل(٥٨)

وفيما نظمه « أبو الحسـين الجـزار » المتوفى سـنة ٦٧٩هـ لمصطلحات العلوم كقوله :

كفـه زمزم تفيض على العا رفين جودا والمال فيها الحطيم

---

(٥٧) بغية الوعاة للسيوطى ص ٥٥ مطبعة السعادة بالقاهرة ١٣٢٦
(٥٨) النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٩١ .

هو أولى بالرفع ان أعرب الدهـ ر وعمر العدا به مجـزوم
عارف بالبديع لم يخف عنه النـ قص منـا يوما ولا التتميم
ويجيز الايطاء في الجود لكن شابنا نحن في المديح اللزوم(٥٩)

حيث ذكر فيه اصطلاحات لعلوم الفقه والنحو والبلاغة والعروض وقد حوى شعر البهاء زهير كثيرا من أنواع شتى لمصـطلحات العلوم فقد جاء فيه من المصطلحات الكلامية كقوله :

عظته لمـا رأيتك معرضـا عنه وما من مذهبي التعطيل(٦٠)

ومن مصطلحات الحديث كما في قوله :

وهوى حفظت حديثـه وكتمتـه فوجدت دمعي قد رواه مسلسلا
يروى حديث الجود عنه مسـندا فعلام ترويه السحائب مرسلا(٦١)

وفيه من مصطلحات النحو قوله :

قمت كمدا يا حاسـدي فأنا الذي له صلة ممن يحب وعائد(٦٢)

وقـوله :

أملى فيـك دونه سـيف لحظ ذاك مستقبل وهذاك ماض(٦٣)

---

(٥٩) خزانة الادب لابن حجة الحموى ص ٣٥ طبع بولاق .
(٦٠) ديوان البهاء زهير ص ٢٠٤ دار المعارف الطبعة الثانية ١٩٨٢ .
(٦١) المرجع نفسه ص ٢٢٥ .
(٦٢) المرجع نفسه ص ٨٢ .
(٦٣) المرجع نفسه ص ١٤٨ .

كما نجد لغة الفقهاء فى شعره كما فى قوله :

قد عنى مما يقول الوشـــا ة فتلك الأقاويل فيها نظر(٦٤)

وغير البهاء من شعراء القرن الســـابع كثيرون حفلت دواوينهم بمصطلحات العلوم حتى اننا لو تصفحنا دواوينهم فاننا لم نظفر من تلك الدواوين بديوان واحد خلا من ذكر تلك المصطلحات .

٤ — أنواع بالمحسنات البديعية والزخارف اللفظية

عمد كثير من شعراء هذا القرن الى ألوان البـــديع من جناس وطباق وتورية واقتباس واســـتخدام وغيرها من ألوان المحســـنات البديعية يحشدون منها ما استطاعوا ويخضعون أشعارهم لقواعدها صحيح ان القاضى الفاضل المتوفى سنة ٥٩٦هـ آخر القرن السادس هو الذى عصر سلافة التورية لأهل عصره وتقـــدم على المتقدمين بما أودع منها فى نثره ونظمه وأخذ عنه ابن سناء الملك المتوفى سنة٦٠٨هـ الا أن شعراء القرن السابع صاروا فرسان حلبتها وواسطة عقد جمانها من أمثال « السراج الوراق » المتوفى سنة ٦٩٥هـ وأبى الحسين الجزار المتوفى ســـنة ٦٧٢هـ وابن النقيب المتوفى ســـنة ٦٨٧هـ والقـــاضى محيى الدين بن عبد الظـــاهر المتوفى ســـنة ٦٩٢هـ والنصر الحمامى سنة ٧١٢هـ فمن قول الجزار موريا فى صناعته :

ألا قل للذى يسأل عن قومى وعن أهلى

لقـــد تســـألْ عن قوم كرام الفرع والأصل

ترجيهـــم بنـــو كلب وتخشـــاهم بنو عجل(٦٥)

---

(٦٤) المرجع نفسه ص ١٢٦ .

ومن قول السراج مورياً فى لقبه :

كم قطع العود من لسان قلد فى نظمه النحورا
منها أنا شاعر سراج فاقطع لسانى أزدك نورا(٦٦)

وكتب اليه الحمامى وكان السراج يقيم بالروضة وكانا يتطارحان الشعر(٦٧) .

كم قد ترددت للباب الكريم لكى أبلّ شوقى وأحيى ميت أشعارى
وأنثنى خائبا مما أؤمله وأنت فى روضة والقلب فى نار(٦٨)

كما أولع بتلك المحسنات البهاء زهير المتوفى سنة ٦٥٦هـ فقد وشى شعره بضروب شتى من البديع والأمثلة على ذلك كثيرة لا يتسع المقام لذكرها ولكنى أكتفى ببعض منها ولنأخذ مثلا تلك القصيدة التى يقول فيها :

غيرى على السلوان قادر وسواى فى العشاق غادر
لى فى الغرام سريرة والله أعلم بالسرائر
ومشبه بالغصن قلـ ـبى لا يزال عليه طائر
حلو الحديث وانها لحلاوة شقت مرائر
أشكو وأشكر فعله فاعجب لشاك منه شاكر
لا تنكروا خفقان قلـ ـبى والحبيب لدى حاضر

---

(٦٥) خزانة الادب للحموى جـ ١ ص ٣٠٦ .
(٦٦) المرجع نفسه ص ٣٠٢ .
(٦٧) المرجع نفسه ص ٣٠٠ .
(٦٨) خزانة الادب للحموى جـ ١ ص ٣٠٢ .

مـا القـلب الا داره ضربت له فيها البشائر
يا ليـل مالك آخـر أبدا ولا للشـوق آخر
يا ليلُ طُلّ يا شـوق دم انى على الحالين صـابر
لى فيك أجـر مجـاهد ان صح أن الليلَ كافر
طرفى وطرف النجـم فيـ ـكَ كلاهما ساه وساهر
يهنيـكَ بـدرك حـاضر يا ليت بدرى كان حاضر
حتى يبـين لنـاظرى من منهمـا زاه وزاهر
بـدرى أرقّ محاسـنا والفرق مثل الصبح ظاهر(٦٩)

فانك تراها مائت بالجناس والمقابلة كما تراها وشيت بالتورية فى طائر وكافر من الكفر بمعنى الستر •

وهكذا أولع الشعراء بهذه الألوان البديعية حتى لقد أصبح الولوع بالبديع هو البلاغة فى نظر الأدباء اذ كان هم كثير من الشعراء أن يقع خاطرهم على لفظ أو تركيب ينبثق منه معنى جديد مع المجانسة أو المطابقة أو المقابلة أو التورية أو نحو ذلك • ولهذا راج نظم البيتين والثلاثة والمقطوعة التى تتضمن أحد المعانى المبتكرة العابرة الجزئية والتى تحتوى على ضرب أو أكثر من ضروب البديع وهذا وان كان لونا من ألوان الفكر أو التعبير كان فيه صارف عن الفكرة العامة المكتملة التى تحتاج الى تفصيل وعن الفكرة الهادفة النبيلة التى تشير الى غاية ومهما يكن من شىء فقد كان هذا العامل من أسباب حفزهم الى نظم الشعر وأعود فأؤكد أن هذا الاتجاه قد خضع لطبيعة العصر حيث كان العصر عصر

---

(٦٩) ديوان البهاء زهير ص ١٢٤ ، ص ١٢٥ طبع دار المعارف سنة ١٩٨٢ شرح وتحقيق محمد طاهر الجبلاوى ومحمد أبى الفضل ابراهيم

الحلية والزينة والألوان فى كل شىء : فى المبانى وهندستها والملابس وزخرفتها والرياش وألوانه والاحتفالات وزينتها وهذا من شأنه أن ينعكس على أساليب الأدباء ــ ناثرين وشعراء ــ استجابة لوحى البيئة الى نفوســهم اذ أن الأدب الحق هو الذى يعبر عن بيئته والأديب الصادق هو الذى يستوحى أدبه من البيئة التى يعيش فيها والشاعر الحق هو ابن بيئته •

فلا غرابة اذ أن أصبحت الألوان البديعية من أهم دعائم أساليب الشعر أنذاك استجابة لروح العصر وتأثرا بظروفه وملابساته وأصبح هم كثير من الشعراء اظهار تورية أو طباق أو مقابلة أو اســتخدام أو جناس أو براعة استهلال أو تضمين أو اقتبــاس أو نحو ذلك من الألوان وأبدع بعضهم فى هذا الباب ابداعا منقطع النظــير وأخص ما عنوا به التورية على ما سبق أن أوضحناه •

بقيت ملاحظة يســيرة لابد من التنويه والتنبيه اليهــا وهى أن عنايتهم بالبديع كانت فى مقدمة الأســباب التى دفعت شــعراء هذا القــرن الى الاكثــار من المقطوعات والموشحات والى المطــارحات والمعارضات بل والى السرقات بعضهم من بعض •

الكلمــة الأخـــيرة

هذه هى أهم الاتجاهات التى اتجه اليها شعراء هذا القرن وان كانت هنــاك اتجاهات أخرى قديمة كالمدح والوصف والغزل والرثاء والاعتذارات وما اليها الا أن هذه الاتجاهات احتلت ساحات كبيرة من دواوين الشعراء استجابة لروح العصر والتى اقتضتها ظروف الحياة حينذاك أرجو أن أكون وفقت فيما قصدت ؟

وعلى الله قصد السبيل •••

د/ محمود جمعة أمين

أهم مراجع البحث

(أ) المطبوعات :

١ ــ الأدب العربى وتاريخه فى عصر المماليك والعثمانيين والعصر الحديث • د/ محمود رزق سليم طبع دار الكتاب العربى بمصر سنة ١٩٥٧م •

٢ ــ بدائع البدائه لعلى بن ظافر مطبعة بولاق سنة ١٢٧٨هـ •

٣ ــ بغية الوعاة السيوطى مطبعة السعادة بالقاهرة سنة ١٣٢٦هـ •

٤ ــ البوصيرى المادح الأعظم للرسول / عبد العال الحمامصى اصدار دار المعارف سلسلة كتابك العدد ٣٤ سنة ١٩٧٨م •

٥ ــ الحياة الأدبية فى عصر الحروب الصليبية • د/ أحمد أحمد بدوى مطبعة نهضة مصر سنة ١٩٧٩م •

٦ ــ خزانة الأدب لابن حجة الحموى طبعة بولاق بدون تاريخ •

٧ ــ دراسات فى الاسلام د/ على صافى حسين اصدار المجلس الأعلى للشئون الاسلامية فبراير سنة ١٩٦٨ م

٨ ــ ديوان البهاء زهير تحقيق محمد أبى الفضل ومحمد طاهر الجبلاوى طبع دار المعارف سنة ١٩٨٢م •

٩ ــ ديوان البوصيرى تحقيق محمد سيد كيلانى طبع الحابى سنة ١٩٧٥م •

١٠ ــ ذيل الروضتين لأبى شامة طبع مصر سنة ١٩٤٧م •

١١ ــ السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزى نشر د/ محمد مصطفى زيادة طبع القاهرة سنة ١٩٣٧م •

١٢ ــ العالم الاسلامى والحروب الصليبية • د/ زكى محمد غيث مطبعة عطايا باب الخلق سنة ١٩٦٤م •

١٣ ــ فصول فى الشعر ونقده د/ شــوقى ضيف طبع دار المعارف بمصر سنة ١٩٧١م .

١٤ ــ فوات الوفيات لمحمد بن أحمد الكتبى طبع بولاق سنة ١٢٩٩هـ

١٥ ــ المختصر فى أخبار البشر لأبى الفداء المطبعة الحسينية المصرية بدون تاريخ .

١٦ ــ النجــوم الزاهرة / يوسف بن تغــرى بردى طبع القــاهرة سنة ١٩٣٥م .

(ب) المخطوطات :

١ ــ الألفيــة فى علم العربية ، يحيى بن معطى رقم ١٠٣١ نحو دار الكتب .

٢ ــ ديوان « أهنى المنائح فى أسنى المدائح » لمحمود بن سليمان ١٣٩٦ أدب دار الكتب .

٣ ــ ديوان بشرى اللبيب بذكر الحبيب لابن سيد الناس ٦٨٩١ أدب

٤ ــ الفوائد الجليلة فى الفرائد الناصرية للناصر داود بن المعظم عيسى . دار الكتب رقم ٢٢٩٣ أدب .

٥ ــ الكافية الشافية لابن الحاجب رقم ٢٦٤ نحو دار الكتب .

٦ ــ كتاب الأعلام فى مثلث الكلام لابن الحــاجب رقم ١٩ نحــو دار الكتب .

٧ ــ لامية الأفعال لابن مالك رقم ١٨٤ صرف دار الكتب .

٨ ــ المقصد الجليل فى علم الخليل لابن الحاجب رقم ٦٨ عروض دار الكتب .

٩ ــ منظومة فى المقصور والممدود لابن مالك رقم ٣٩٠ لغة عربية دار الكتب .

١٠ ــ الموشحة بالأسماء المؤنثة لابن الحاجب رقم ٦٣٧ لغــة عربية دار الكتب .